والنهار، ولولا تعاقب الفصول لحسبنا أن ليس في الكون من حركة إلّا حركتنا وإلّا حركات الكائنات التي تشاطرنا الأرض. ومن ثمّ فالتغيّر المستمرّ في أحشاء الأرض وفي أديمها يكاد يكون أبعد من متناول حواسّنا. فالجبال تبدو لأبصارنا ونحن في الشيخوخة كما لو كانت عين الجبال التي عرفناها ونحن في ريعان الصبا والتي عرفها أسلافنا منذ آلاف السنين. وكذلك الأودية والأنهار والبحار، إلّا إذا زلزلت الأرض زلزالها فانـدكّـت نجاد وارتفعـت وِهـاد، وجفّت أنهار وتفجّرت أنهار، ولفظ البحر جزيرة أو ابتلع جزيرة. فحينئذ ندرك أن وجه الأرض قد تغيّر.

لو أنّنا ما كان لنا من هادٍ في حياتنا غير الحواس وغير الغريزة لَمَا كان من فرق بيننا وبين البهيمة، ولقبلنا الأشياء على ظواهرها، فما خطر لنا ببال أن خلف الظواهر بواطن، ولا عرفنا أنّنا والعوالم من حولنا في تغيّر مستمرّ، ولا سألنا أنفسنا عن ذلك التغيّر هل هو يتبطّن عن قوّةٍ تُغَيّر ولا تَتَغَيّر، وتُحرّك ولا تَتَحرّك، وما هي تلك القوّة، ثمّ هل لها غاية وما هي تلك الغاية؟

إلّا أن القدرة التي انتشلتنا من حظيرة البهيمة ورفعتنا إلى مستوى الإنسان ما تركتنا عالة على الغريزة ولا ألعوبة